﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد في قوله سبحانه:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ﴾ [التوبة]

كانت تلك هي الحيثيات التي ترغّب الناس في الجهاد ترغيباً يخرجهم عمّا ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذي يتلقونه مقابل ذلك الجهاد ثمن كبير ، ثم جاءت هذه الآية.

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله ﷺ وحده ، ورسول الله ﷺ يستقبل وحي الله.

واستقبال وحى الله يقتضى وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة فى الجهاد ، فبيَّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه فى الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحى بماله، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التى يبذل فى سبيلها الغالى والرخيص.

لكن يبقى أمر آخر، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعنى الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله ﷺ ما يوحى به الله.

إذن: فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله ﷺ أولا ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً؛ ليسيحوا به فى البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هى استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن: فلا بد أن يحافظ المسلمون على أمرين: أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام [1] بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد فى سبيل الله فقد حققّتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله . فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ .

---

(١) لأن الجهاد فى سبيل الله لملاقاة العدو فرض بدوافعه وبمقتضى حال الدعوة ، أما الجهاد الإعلامى فهو مطلوب حتى قيام الساعة ، فهو جهاد موصول ما دام هناك باطل يناهض حقاً .

وساعة تسمع «كَانَ» منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أى: ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أى : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد.

و﴿كَافَّةً﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول: «أريد أن أكفّف الثوب» معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب، إذن: فمعنى كلمة ﴿كَافَّةً﴾ : جميعاً.

ولنا أن نتساءل: لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله؟

نقول: نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله فى الأرض ، ولكن الذى يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتى فى زمن رسول الله ﷺ من منهج السماء حين ينزل على رسول الله ﷺ.

إذن: فلا بد من أناس يسمعون وحى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض[1] جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ وفى هذا نفى أمر فيه انبغاء أى : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله ﷺ منهم.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ نشأ فى أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قوىّ يسحر ، وكان فى هذه الأمة أناس كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله ﷺ لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن

---

(١) إن الإعلام الدينى هو جهاد له صفة الاستمرارية ؛ لأنه وسيلة إقناع دائمة لتدعيم قيم السماء لتنظيم فوضى الأرض، ولا يكون الجهاد بالسيف إلا بعد الإقناع والتمادى فى الباطل لطمس معالم الحق. ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ (١٨) ﴾ [الأنبياء].

يقلل من فصاحة رسول الله ﷺ ، فقالوا: إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ... (٦٩)﴾ [يس]

أي: أنه ﷺ كان يستطيع أن يتفوق في ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغي له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً ﷺ مُرْتاض [1] على صناعة البيان وأساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجيء الدنيا بالبيان الأعلى في القرآن ، ويعلن ﷺ أن هذا البيان ليس من عنده.

وقد عاش الرسول ﷺ بينهم مدة طويلة، ولم يسمعوا منه شعراً، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد.

وقوله الحق : ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي: لا يصح أن يكون هذا الأمر، رغم استعداد محمد ﷺ لذلك، وكان من الممكن أن يُعلِّمه ربه الشعر وفنون القول؛ ولذلك حينما قال أناس: إن القرآن من عند محمد، جاء القول الحق مُبلِّغاً محمداً:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .. (١٦)﴾ [يونس]

وقد عاش بينهم رسول الله ﷺ أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة.

ومن الذي يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أي: في العقد الثاني من العمر، ولا أحد يؤخر ظهور عبقريته.

(١) مرتاض : أي معتاد على قول الشعر ، قد ذللت له القوافي والبحور والأوزان واللغة لينظم ما شاء ، وهذا لا ينبغي لرسول الله ﷺ ، وإلا كان موضع طعن في القرآن.

إذن: فرسول الله ﷺ حينما نزل عليه القرآن بالترغيب فى الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين؛ فجاء قوله الحق:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

وفى هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحى الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تُعلِّم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول ﷺ جميعاً ، فكيف يصل الوحى من الرسول ﷺ إلى المؤمنين ؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً فى المدينة فمن الذى يسيح فى الأرض معلِّماً الناس ؟ أما إذا بقى الرسول ﷺ والمؤمنون معه، فى فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف ؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط .

وكذلك إن خرج رسول الله ﷺ إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحى من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود.

إذن: فالمشكلة كانت فى حالة عدم وجود رسول الله ﷺ مع الخارجين للجهاد، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله ﷺ فى المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين: قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال.

حين كان الرسول يخرج إلى القتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله ﷺ ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية بـ «السَّرِية»[1] .

---

(١) كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازياً سبعاً وعشرين ، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها ، هى : بدر ، وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين ، والطائف . وبلغ عدد بعوثه أو سراياه سبعاً وأربعين ، وقيل : بل نحواً من ستين .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة [١].

وقد خرجت المهمة القتالية عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ، فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمى تلك المعركة بـ «السَّرية» بل هى غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً.

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فى المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات: إن مات فلان فى القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه [٢]، أى : أنه ﷺ قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ.

وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات، من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التى لم يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين، وكأنه ﷺ كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال.

ثم وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان الرسول ﷺ فى المدينة والتفت الصحابة فسمعوا رسول الله ﷺ يتكلم ؛ قال: أخذ الراية فلان

(١) هى غزوة مؤتة ، ومؤتة هى قرية من أرض البلقاء من الشام من أعمال دمشق ، وكانت تسمى أيضاً جيش الأمراء .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : « أمّر رسول الله ﷺ فى غزوة مؤتة زيد ابن حارثة . فقال رسول الله ﷺ : إن قتل زيد فجعفر ، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة . قال عبد الله : كنت فيهم فى تلك الغزوة ، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب ، فوجدناه فى القتلى ، ووجدنا ما فى جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية » .

فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتل . ثم قال: وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقصّ المعركة [(١)] وهو فى المدينة فقالوا: لم يقل ذلك إلا لأنه شهد.

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس فى المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا: شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله ﷺ فهى غزوة.

ونعود إلى الآية التى يقول فيها الحق:

﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ... (١٢٢)﴾[التوبة]

وساعة تسمع كلمة «لولا» فلك أن تعرف أن فى اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، فـ «لو» و«لولا» و«لوما» و«هلاَّ»، هى - إذن - ألفاظ واردة فى اللغة ، وإذا سمعت كلمة «لو» فهذا يعنى أن هناك حكماً بامتناع شيئين. شىء امتنع لامتناع شىء ، مثل قولك: «لو كان عندك زيد لجئتك» وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجىء زيد ، فكلمة «لو» حرف امتناع لامتناع، وتقول: لو جئتنى فى بيتى لأكرمتك. إذن: فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت.

وتقول: « لولا زيد عندك لجئتك» أى: أنه قد امتنع مجيئى لك لوجود زيد. إذن: فـ «لولا» حرف امتناع لوجود. ونلحظ أن «لولا» هنا جاء بعدها اسم هو «زيد» ، فماذا إن جاء بعدها فعل، مثل قولك: «لولا فعلت كذا» ؟ هنا يكون فى القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق:

﴿لَّوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا (١٢)﴾ [النور]

---

(١) عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب وإن عينيه لتذرفان ، ثم أخذها خالد من غير إمرة ، ففتح الله عليه ، وما يسرنى أنهم عندنا - أو قال : ما يسرهم أنهم عندنا . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٢٦٢) وأحمد فى مسنده (٣/ ١١٣) .

ومثل قوله: ﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ... (١٣)﴾ [النور]

ومثلها أيضاً «لوما» مثل قوله الحق:

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)﴾ [الحجر]

وأيضا قولك: «هَلاَّ». فهى أيضاً تحضيض مثل قولنا : «هلا ذاكرت دروسك» ؟ وأنت بذلك تستفهم بـ (هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك: «هلا أكرمت فلاناً ؟» وفى هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً[1].

والأسلوب هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ ثم يأتى الحث على أن ينقسموا إلى قسمين فى قوله : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد. والقسم الثانى يظل مع رسول الله ﷺ وهو يستقبل منهج السماء.

وقوله الحق : ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فيه كلمة ﴿نَفَرَ﴾ وهى من النفور . لكنها استعملت دائماً فى مسألة الخروج للحرب ، مثل قوله الحق:

﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ[2] إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا ... (٣٩)﴾ [التوبة]

ولماذا يجىء الحق بالنفرة فى الجهاد ؟ نقول: لأن الذى يعوق الإنسان عن

---

(١) الأدوات الثلاثة (لولا - لوما ، هلاَّ) لا يليها إلا المضارع ظاهراً أو مقدراً . فإن دخلت على ماض خلصت زمنه للمستقبل ، بشرط أن تفيد التحضيض . ومنها الآية التى معنا ، ومثلها قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ... (١٠)﴾ [المنافقون] وانظر : النحو الوافى لعباس حسن.

(٢) اثاقلتم : تثاقلتم وأخلدتم إلى الأرض ، فتباطأتم عن تلبية النفير خوفاً على أنفسكم وأموالكم . انظر : لسان العرب.

الجهاد حبه لدَعَته[1]، ولراحته، ولسعادته بمكانه، وبأهله، وبماله، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه، ولذلك يقول الحق:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ... (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وفي ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان، لكن الحق قد كتبه، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذى يملكه، ويذهب للثواب الأعلى، وهذا هو معنى التحديد فى أنهم سمّوا الجهاد نفرة، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل: ما الذى يجعلنى أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر؟

فلما جاءت ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد، ولتبقى طائفة من المؤمنين؛ لتسمع من رسول الله الوحي، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾، هنا يقول المسلم لنفسه: وهل تنفر الطائفة التى تتفقه فى الدين، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله فى المدينة؟

ونجيب: إن قوله الحق: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ نجد فيه كلمة ﴿فِرْقَةٍ ﴾ وهى الجماعة، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف. مثلما نسمى فى الجيوش «الفرقة الأولى» و«الفرقة الثانية» و«الفرقة الثالثة»، ثم نقسم الفرقة الواحدة إلى: «جماعة الاستطلاع» و«جماعة التموين» و«الشئون المعنوية»، ونجد كلمة ﴿طَائِفَةٌ ﴾ وهى تعنى «بعض الكثرة»[2].

---

(١) الدَّعَة: ترف العيش والراحة.

(٢) الطائفة: الرجل الواحد إلى الألف. والدليل على أن الواحد يقال له طائفة لأنه أصل الجمع قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... (٩) ﴾ ثم قال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ... (١٠) ﴾ [الحجرات].

وما دام الحق قد قال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ فهذا يعنى أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين، إحداهما تنفر، والأخرى تبقى لتتفقه فى الدين. إذن: فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائى كل ينفر لمهمته.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ فمن يجلس مع رسول الله ﷺ ليستمع إليه، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه ﷺ من وحى، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول فى المدينة، والقتال، وكل طائفة تؤدى مهمتها.

وهناك من العلماء من رأى رأياً آخر، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها، وقال: إن من بقى مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة، ولأنه يأخذ من الرسول ﷺ علماً جديداً، يتبادله مع المقاتلين فى ساحة القتال بعد أن يعودوا، فالمقاتلون فى ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة، وتهدم العدو، والمعجزات التى رأوها من رسول الله ﷺ كنبوع الماء من بين أصابعه فى حال قلة المياه عند العطش[1].

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقى العلم أخبار الوحى والفقه، وهكذا يتكافأ المؤمنون فى المهام، وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

وما تقدم هو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد؟ نقول: إن الجهاد إعلام بمنهج الله فى الأرض،

(١) قيل لجابر بن عبد الله: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة، وذكر عطشاً أصابهم، قال: أتى رسول الله ﷺ بماء فى تور، فوضع يده فيه. فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا، قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف كفانا. كنا ألفاً وخمسمائة. أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤/ ١١٥).

والإعلام بمنهج الله فى الأرض يقتضى المنهج المعلوم من السماء الذى يوضح مصير المجاهدين، ومصير المتخلفين. وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله.

﴿فلولا نفر من كل فرقة ﴾ أى: يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التى حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتى آخرون من البلاد الأخرى ليَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم.

ويكون قول الحق : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليجلسوا إلى رسول الله ﷺ ليسمعوا ، ويتفقهوا فى الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان.

إذن: فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله ﷺ ، فهو ﷺ يعلِّم من يأتون إليه من أى مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال.

إذن: تكون النفرة للتفقه فى الدين على أى معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التى تتفقه ؛ لتعلِّم الطائفة التى تجاهد ، أو الطائفة التى تجاهد تتفقه بالمعجزات و بالأحداث التى حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التى لم تخرج للقتال.

أو أن المعنى هو الأمر الثانى الذى لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول ﷺ لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه ﷺ ، وقد سماها الحق «نفرة» ؛ لأنها جهاد فى البحث فى المنهج وتعلمه ، وهى نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله.

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هى الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله ﷺ ، ويعودان للبلاغ عنه ﷺ نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبى قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله ﷺ أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين؟

وقد جاءت الآية صريحة فى أنه ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم فى الدين ، ويؤدى البلاغ عن رسول الله ﷺ .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا: إن الذى نفر ليس فرداً من الفرقة ، بل طائفة من الفرقة ، ومفردات الفرقة طوائف لا واحد، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة فى أى بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب، ويلهو، فهو لم يحقق النفرة. لا بد إذن من أن يستوعب كل واحد فى البعثة أنه قد جاء للتفقه [1] .

والفقه فى اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أى أمر تفهمه : فقهتُ الأمر

(١) لطلب العلم والتفقه آداب ، منها : أن يكون لوجه الله ، لا لطلب سمعة أو غيره ، فعن كعب بن مالك قال قال ﷺ : « من طلب العلم ليجارى به العلماء ، أو ليمارى به السفهاء ، ويعرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٤) ، والحاكم فى المستدرك (١ / ٨٦) شاهداً ، وابن أبى الدنيا فى الصمت (حديث١٤١) والعقيلى فى « الضعفاء الكبير » (١ / ١٠٤) . فيه إسحق بن يحيى تكلموا فيه من قبل حفظه .

الفلانى . فإن فهمت فى الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت فى العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذى غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه فى الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل».

إذن: الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحًا يعنى فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذى يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : «الفقيه» إلا لمن فَقُه. وهناك فرق بين فَقه وفَقُه . فَقُهَ فى دين الله ، أى : أصبح الفقه عنده ملكة ، وساعة تسأله فى أى موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكة عنده ، والملكة : الصفة التى ترسخ فى النفس من مزاولة أى عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل . وكذلك الفقه. وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ: «فهم شيئاً». أما فَقُهَ فمعناها: صار الفقه عنده مَلَكَة.

وقوله الحق : ﴿ لِيَتفقَّهُوا﴾ أى: ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم: من بعد ذلك مَلَكَة عندهم.

ولكنْ ماذا إن نفروا لشيء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته: إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون: نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم. لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هى التفقّه فى الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لايطلب جاهاً ، أو رئاسة ،أو وظيفة ،بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ،ولينذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أى: يتجنَّبون مايضرُّهم.

وحين ندقق فى هذا الأمر نجده عدة مراحل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ هذه هى المرحلة الأولى ، ثم ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ﴾ هذه هى المرحلة

الثانية وهى التفقه ، أما الثالثة فهى ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليشار إليه بالبنان مثلا [١] ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم.

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى. ولنا أن نتساءل : لماذا - إذن - جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم فى حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التى يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد فى سبيل الله.

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس فى آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر، وطائفة منها تبقى مع رسول الله ﷺ . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعلَّم وتعلِّم [٢] ، وتتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح

(١) البنان : الأصابع . مفردها بنانة . ومنه قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) ﴾ [القيامة] قال الفارسى : أى : نجعلها كخف البعير فلا ينتفع بها فى صناعة . نقله ابن منظور فى اللسان .

(٢) ففرقة التعليم والتعلم هى ما يعبر عنه حديثاً بالتوجيه المعنوى ، والتوجيه المعنوى أساس الانطلاق الإيمانى نحو ما يريده الله سبحانه لدعوته .

الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ وهذا يعنى أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم ، والحق قد قال :

﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (٣٦) ﴾ [التوبة]

إذن : فهناك أولويات فى القتال ، وقتال الكفار القريبين منك فيه تأمين لمعسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحاله أكثر من علمك بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك «كماشة» بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمى ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب .

إذن : فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب . ولا تَعارض بين قوله الحق : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ وقوله سبحانه : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ؛ لأن معنى ﴿كَافَّةً﴾ أى : جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية . فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، ومتى ضممته إليك نقصت أرضا من عدوك ، وأصبح زائداً فيك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه .

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهى تنقص من تحت أقدامكم [١] ، وما ينقص من

---

(١) قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] . قال ابن عباس فى تفسيرها ، أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض . وهو الأولى فى تفسير هذه الآية ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٢٠).

أرض الكفار يزيد فى أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة «قتال» فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّىء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد فى مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعته ، وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل فى الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق:

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والغلظة صفة ، ويقال: غلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة [1] ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة ، وبجرأة، وبشجاعة.

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة فى حالتين اثنتين ؛ فى حالة الإرسال منك ، وفى حالة الاستقبال منه ، فلا يكفى أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تَحملُ على عدوك ، وغلظة تتحمَّل من عدوك.

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيها الحق:

﴿اصْبِرُوا... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

ولكنْ هَبْ أن عدوك يصبر أيضاً ، فيأتى الأمر من الحق:

﴿وَصَابِرُوا ... (٢٠٠)﴾ [آل عمران]

أى: حاول أن تغلبه فى الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء

(١) قال الفراء : لغة أهل الحجاز وبنى أسد « غلظة » بكسر الغين . ولغة بنى تميم « غُلظة» بضم الغين. وقال الزجاج : فيها ثلاث لغات : غلْظة ،وغُلْظَة ، وغَلْظة. انظر : لسان العرب مادة (غ ل ظ)

المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم [1] المؤمن ؛ لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ وَرَابِطُوا... (٢٠٠) ﴾ [آل عمران]

أي : استقر أيها المؤمن في الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدَّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن : فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضي صبراً ، والتحامل يقتضي شجاعة ، فإذا ما كان في خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أي : تصبر أكثر منه ، وهي مأخوذه في الأصل من «نافس فلان فلانا . . أي سابقه وحاول أن يسبقه» ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾ [المطففين]

أي : تنافسوا في الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شيء مرة أو مرتين في اليوم ، وتحتاج إلى شيء آخر خمس أو ستَّ مرات في اليوم. وتحتاج إلى شيء ثالث دائماً . فأنت في الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفي الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر. أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان.

وقلنا قديماً: إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التي في جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما مَلَّك

(١) يستنيم المؤمن : أي ينتهز منه نومة أو غفلة عن سلاحه . ويقول عز وجل : ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً... (١٠٢) ﴾ [النساء] فالغفلة عن السلاح والمتاع أثناء القتال هي حلم للكافرين يتحينون به أي فرصة لحدوثها ليميلوا على المؤمنين ميلة واحدة ، فيأخذونهم مرة واحدة .

الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمّى استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهى مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذى يضمن استمرار النفس فى الحياة .

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشىء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة [1] لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه: ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أى: غلظة تحمل بها على العدو ، وغلظة تتحمَّل من العدو ، وأن تصبر ، وتصابر ، وترابط .

وكيف يطلب الله منا أن تكون لنا غلظة عليهم مع أنه قال لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فإن هذا ينفى الغلظة ، وأقول: لنُفرق بين أمرين ، أمر الغلظة فى أن تكون الحجة قوية ، وأمر الغلظة التى يتطلبها القتال ، أما المعايشة والمآكلة والملاطفة ، فهذه تحتاج إلى لين ورقَّة .

وقوله الحق : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعنى أنك إن تَطَلَّبَ الأمرُ فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا: إن الله

---

(١) أصل الرباط من مرابط الخيل التى تربط بها فى مواجهة الأعداء فى الثغور والحدود مع العدو ، ففيه معنى التربص به والحذر من غدره . ومما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٢) وأحمد فى مسنده (٥/ ٣٣٩) والترمذى فى سننه (١٦٦٤) عن سهل بن سعد الساعدى ويستعمل الربط فى المعانى كقوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ (١٤) ﴾ [الكهف] أى ثبتنا قلوبهم وعزائمهم على الإيمان . وهم فتية أهل الكهف.

لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩)﴾ [الفتح]

وقال :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (٥٤)﴾ [المائدة]

ويُنهى الحق الآية :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان. ومثال هذا من يسلك مفاوز [1] أو صحارى مقفرة [2] أو طريقا موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة .

أما النصر فهو من المدد الربَّانى من الحق سبحانه وتعالى. وما دام الله مع المتقين ، ولله معيّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله :﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ لننتبه إلى أن الداخل فى الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً فى المغنم ، فيدخل على الكافر بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول: أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية [3] هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

(١) المفاوز : جمع مفازة ، وهى الصحراء المهلكة ، وسميت هكذا ؛ لأن من دخلها وخرج منها وقطعها فاز . قال ابن شميل : المفازة التى لا ماء فيها.

(٢) مقفرة : خالية من الكلأ والناس .

(٣) المطية : البعير أو الناقة يمتطى ظهرها أى : تركب . والجمع مطايا .

لذلك يأتى التحذير فى قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فإن سلَّم لك و استسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هى العليا [1] وهنا تكون معيه الله لك ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعنى أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد فى طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له فى الحرب شجاعة ، وفى السلم وداعة ، وخيركم من كان فى الجيش كمياً وفى البيت صبيّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة فى غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾ [التوبة]

أى : كونوا فى حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو فى سبيل الله » وفى رواية « هى العليا فهو فى سبيل الله ». أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون فى معية الله [١]

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قوله الحق : ﴿ و إذا ما أنزلت ﴾ يعنى : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك «نَزَل» و«أنزَل» و«نَزَّل» فـ « أنزَل» للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً [٢] . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل - عليه السلام - على سيدنا محمد ﷺ .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل - عليه السلام - بالقرآن على رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

(١) عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الغزو غزوان ، فأما من ابتغى وجه الله ، وأطاع الإمام ، وأنفق الكريمة ، وياسر الشريك ، واجتنب الفساد ، فإن نومه ونبهه أجر كله ، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة ، وعصى الإمام وأفسد فى الارض ، فإنه لم يرجع بالكفاف » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣٤) وأبو داود فى سننه (٢٥١٢) والنسائى فى سننه (٦/ ٤٩) .

(٢) على حسب الحوادث .